

سميولوجيا الصوت اللغوي

د. ابراهيمي بوداود*

ملخص :

لئن كانت أحدث الآراء قد صبت في أن الوظيفة التي يؤديها السمع كما البصر لا تتعدى مهمة نقل المحفز الصوري أو الأكوستيكي إلى الذهن، لتتشكل بذلك الصورة الذهنية المقابلة لمدخلات الموجودات، فإن هذا التفسير ظل مهما يكتنفه الغموض، وذلك في ضوء التباين والاختلاف الحاصل في خصائص ونوع العلامة التي ينقلها الوسيطين إلى الذهن. حيث يندساق البحث حتما إلى محاولة الكشف عن طبيعة تلك الوظيفة المشتركة، أو عن المفصل الذي يتقاطع فيه الوسيطان، حيث تُسبك وتنصهر خصائص الوسيطين في أنموذج توافقي لأداء وظيفة مشتركة. ومن هنا، فقد جاء بحثنا المقدم ليتقصى في طبيعة تشكل الصورة السمعية ومن ثمة التمثل الدلالي، وعلاقتها بالمدرّك الحسي الخارجي الذي يحيط بالمتكلم.

الكلمات المفتاحية:

العلامة، الصورة السمعية، الفونيم، الغرافيم، المدركات الحسية، التقابل، القيمة الخلافية، الوظيفية التمييزية.

* - باحث أكاديمي- المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان- الجزائر.

يجمع عنوان بحثنا بين قرينتين متناظرتين بالنقيض في دلالاتهما المعجمية، فلئن كانت السيميولوجيا حقلا معرفيا يعنى بما تؤديه العلامة البصرية من وظيفة إفهامية وتدليلية، فالصوت اللغوي هو ظاهرة حسية مادية لا نجد لها تمثلا إلا عبر عالم المسموعات والتمثلات الحسية للأجسام، غير أن هذا التناظر بين القرينتين قد تنسل منه مأخذا ومسالك معرفية تتقاطع ضمنهما وظيفتا البصر والسمع معا .

وقد أبرز العزيز الحكيم هذا التلازم في أكثر من آية، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان:2) وقوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ (الأنعام: 46)، وقال ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 78)، وقوله ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (مريم: 42) ومن باب الإعجاز، فقد أورد المولى عز وجل هذا التلازم في أغلبه بتقديم السمع لأسبقيته في الخلق والتطور العضوي والوظيفي في تشكل الإدراك وإحداث التواصل

وفي ضوء هذه الحقيقة، وضمن هذا التلازم الذي خصه الله بحاستي السمع والبصر بوصفهما وسيطين في تأدية عمليتي الفهم والإفهام. فإن الاهتمام البحثي بهما انعطف نحو جملة الوظائف التي يشتركان فيها مع ما يؤديه الذهن من تصورات منطقية وإدراكية باعتبارها مجموعة من العلامات التي تحيل إلى مدلولات الأشياء.

وإذا كان علماء السيمياء قد توافقوا على حصر حدود العلامة البصرية بوصفها تمثلات عينية تحيل إلى موضوع المدلول بمؤداه العرفي والاجتماعي في إطار لساني محض، حيث جمعت العلامة بين الأيقونة والرمز والمؤشر، فإن العلامة الصوتية، ومن منطلق ترابطها مع الممارسة الفردية للأداء الكلامي تتفرد حتما بخصوصية فيزيولوجية وسيكولوجية تسهم في أدائها القيمة اللسانية الناتجة عن الوظيفة التمييزية للصوت اللغوي، وهي وظيفة تمتاح من تلك الاختلافات التقابلية للأصوات اللغوية.

ثنائية اللغة وأفق تشكل النظام التقابلي:

على الرغم من اختلاف التعاريف التي شملت موضوع اللغة، بوصفها نظاما اجتماعيا أو كينونة وجودية مستقلة، إلا أن جل هذه التعاريف لم تقص حقيقة أن هذه الظاهرة تنهض على كيانين متناظرين ومتكاملين، في الآن نفسه، كيان طبيعي ملموس، وآخر تجريدي محسوس، وكل تحليل أو تعليل يلحق بأحدهما، إلا عثرنا له على قرينة في الجانب الآخر. فاللغة ليست بمعزل عن كل الظواهر الطبيعية في اكتنائها لنظام الثنائية الذي نسجت عليه الخليقة جمعا.

ولئن كان جوهر الثنائية في الكون، يقوم على نظام التقابل أو التناظر، فإن مفهوم اللغة لم يكن إلا تماهيا، انحصر بين ثنائيات عدة، عند المفكرين والفلاسفة، فأفلاطون في جمهوريته يضع لها موقعا بينا بين « Logos وكيف يقال Lexis »⁽¹⁾، ويؤكد على وجوب التفريق بين الوحدة المنطقية والوحدة المعجمية في تركيبية اللغة. والتركيبية اللغوية كما أوضحها أرسطو هي انصهار بين « المادة والصورة »⁽²⁾، على غرار كل الظواهر الطبيعية في الوجود المتعين، كناية على العالم أو الكون. والمادة بهذا المعنى، هي كل جسم موجود، تستشعره الحواس، تقابلها الصورة، أو المتعين، وهو التجريد أو التصور الذي لا يستشعره سوى الذهن والعقل.

ولعل ما ذهب إليه إخوان الصفا في تشفيرهم لثنائيات اللغة، بدى أكثر وضوحا، حيث حصروها في تركيب بين « النطق الفكري، والنطق اللفظي »⁽³⁾، ومردهم في ذلك، التصور والكلام، ونجدهم في مقام آخر يعبرون لها « بالتعبير والمعبر عنه »⁽⁴⁾، والمعبر عنه بهذا المعنى، هو الصورة الذهنية، أو الحاجة كما يسميها ابن جني، غير أن التعبير يأخذ معنى المتلفظ أو الكلام.

ولم يبتعد أكثر البلغاء عن نظرية الثنائية في تفسير كينونة اللغة، عدا محاولاتهم المتكررة تبينان طبيعة العلاقة بين القرينتين المتناظرتين المشككتين للظاهرة، حيث انتقل الجدل من قضية الصورة والمادة، إلى قضايا مرادفة، على غرار ما جاء به ابن الحاجب وهو أن اللغة « كل لفظ وضع لمعنى »⁽⁵⁾، والأمر ذاته عند السيوطي في تعريفه لحد اللغة ، ولعل اصطلاح (لفظ/معنى)، كان الأكثر دُنوا في الدلالة على ثنائية المادة والصورة، ما جعل منه محل إجماع واتفاق عند أغلب البلاغيين وعلماء اللغة.

غير أن المذاهب الفلسفية الحديثة في أوروبا، وضمن نظرية المعرفة، أو الابدستيمولوجيا سعت جاهدة إلى البحث في العلاقات الكامنة بين الظواهر والتخلص أبعد ما يمكن من التفسيرات

الميتافيزيقية، إيماناً منهم «إن العالم الذي نعيش فيه يعبر عن ظاهر لا عن حقيقة»⁽⁶⁾، فكان لهم أن زجّوا بالظاهرة اللغوية من جديد، داخل نسيج مفاهيمي أكثر انفتاحاً على رؤى أخرى، موسعين من زاوية النظر لمفهوم اللغة من حيث هي توليد كلامي ولساني، وأن استيعابها لا يتعدى ثنائية الفعل الاستدلالي، بين المعبر والمعبر عنه. إنما هي «منظمة عرفية للرمز إلى نشاط المجتمع»⁽⁷⁾، ومردهم في العرف، هو التواضع، والمرجع، والمآل الدلالي، الذي تتفق عليه الجماعة في تحديد معاني المرسلات الكلامية، لتتحول اللغة إلى «مجموعة من المعاني تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو المباني»⁽⁸⁾، وهو ما أسس للدعوة إلى تناول موضوع اللغة من حيث هو كلية أو بنية بدل الوحدة والجوهر، وأن الكشف عن وحدتها الصغرى لن يتأتى إلا من خلال تقصي حقيقة العلاقات القائمة بين تلك الوحدات، ويؤكد جاكبسون هذا قائلاً: «أنا لا أعترف بالأشياء بحد ذاتها بل أؤمن بالعلاقات القائمة بينها»⁽⁹⁾، لتمثل العلاقة بذلك في الدينامية والحركية التي تؤديها اللغة في فعلها التواصل بين البشر.

اللسانيات البنوية ومبدأ التقابل

إن نشوء التفكير البنوي المحايث، عند علماء اللغة على غرار ليفي شتروس، وبياجي وراسل، نبع من توقهم الكشف عن طبيعة العلاقات بين عناصر البناء اللغوي، باعتمادهم طريقة العرض، للبرهنة عن حقيقة التعبير عند الإنسان، «فالأسماء ليست إلا عناوين خداعة، يقع إلصاقها بالأشياء التي نظن أننا نعرفها»⁽¹⁰⁾، والملفوظ عندهم ما هو في الأخير إلا تركيب لمجموعة من الأصوات العارضة اتفق عليها أنفاً للإشارة إلى الشيء لا للدلالة عنه، أو عن مقصده. حيث لا تمثل الكلمة إلا إيقونة أو علامة على صورة ذهنية، وعليه فالبحث عن المعنى يستوجب البحث عن حقيقة العلامة، أي البحث في العلاقة بين المادة والصورة. ومن هنا، بزغت البدايات الأولى لعلم السيميائيات.

لقد انطلق ديسوسير في فكره اللساني، من نقطة التفريق بين التقابلات والبحث في العلاقات الحاصلة بينها، بدءاً بالتفريق بين اللغة، والكلام، واللسان، حيث عدّ اللغة «نتاجاً اجتماعياً ملكة اللسان، وتواضعات ملحة لازمة يتبناها الجسم الاجتماعي»⁽¹¹⁾، واعتماده توظيف مصطلح الجسم، هو البناء المتكامل الذي تجتمع فيه عوامل عدة، في مقدمتها العوامل الثقافية والسوسيولوجية، أما التواضع الملح، فهي إحالة إلى التوليد الكلامي، الذي مبدأ التواصل، ومقابلة الصورة للمادة، فاللغة بهذا المعنى، «كائن حي تام خاضع لناموس الارتقاء»⁽¹²⁾، وليس لنا أن نتخيل مجتمعا يتلفظ بصيغ، ليس لها وجود مادي وعيني.

لكن سوسير، ومن منطلق بنوي تعامل مع اللغة على أنها الظاهرة الكلية، التي تنبني على قرائن أخرى، رأى أن سابقه قد أخلطوا الفهم فيها، وقرائن اللغة عنده هي الكلام واللسان، مؤكداً على ضرورة الفصل بينهما، ونستدل ذلك في قوله: «وفي فصلنا اللغة عن الكلام، فإنما نفصل في وقت واحد الاجتماعي عن الفرد، الجبري عن الثانوي والعرضي»⁽¹³⁾، حيث أكد على التباين الحاصل بين الظاهرتين، ففعل الكلام عنده هو سلوك فردي، يخضع إلى ملكة النطق، حيث أحال بالظاهرة الكلامية إلى مصاف الظواهر البيولوجية والحيوية، التي تتملص من كل قيد اجتماعي، على نحو القيد الذي تقبع تحته الظاهرة اللغوية.

إن ما ذهب إليه ديسوسير في حصره لمفهوم اللغة، من حيث هي «نظام من الأصوات، يسعى لسانا لدى كل قوم»⁽¹⁴⁾، قد حقق له غاية التعامل مع اللسان، بوصفه تركيب رمزي، ليس أكثر، لأننا نحسب أن ديسوسير قد أهمل طبيعة الرمز-الصوت في اللغة المنطوقة- في حد ذاته، واعتبره عرضاً، كما ذهب إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني من قبله، وهو الرأي الذي لم يلاق إجماع المدرسة التوليديّة التحويلية، واعتبر تشومسكي «اللغة نتاجاً عقلياً، يستلزم بالذات الإقرار بوجود بنية فطرية مختصة ولزاماً لتكوين اللغات الإنسانية»⁽¹⁵⁾، ما يدفع بنا حتماً إلى الوقوف والتأمل في طبيعة الرمز اللساني، حيث نقف على كم هائل من النظريات التي حاولت الخوض في أصل الصوت اللغوي، على نحو النظرية الفطرية، والبيولوجية، ونظرية الاكتساب، ونظرية المحاكاة.

نظرية التقابل الصوتي عند الشكلايين

أن نشير إلى أن الدراسات التي اهتمت بموضوع أصل الرمز لم تمدنا بنتائج بيّنة وموضوعية، واقتصرت على مجرد تخمينات اعتمدت على شواهد انتروبولوجية هشة، وهو ما دفع بالألسنيين للانزياح إلى موضوع الدلالة والوظيفة اللسانية بدءاً بالجملة، وبعدها المفردة عند السيميائيين، إلى أن جاءت مدرسة براغ الوظيفية، والشكلاية الروسية، مع الأبحاث التي قدمها رومان جاكوبسون في دراسته لعلاقة الصوت بالمعنى في إحداث شعريّة الخطاب، بعد أن وقف على حقيقة الوحدات الصوتية الصغرى (الفونيمات)^(*) ودورها في هيكلية البنية اللغوية، والخطاب التواصلية، بوصفها «وحدات صوتية دنيا قادرة على التمييز بين المدلولات»⁽¹⁶⁾، منطلقاً من الاختلافات الحاصلة في الخاصية الفيزيائية والخاصية الفيزيولوجية للصوت اللغوي، ورأى جاكوبسون أن هذه التباينات تؤدي إلى تشكيل تقابلات أو تمايزات صوتية، تحدد أول تفريق بين المنطوقات يساهم لاحقاً في بناء الاختلاف الدلالي للمفردة ولكل بناء لغوي أكبر. كما يذهب إلى التأكيد أن النظام التقابلي بين الأصوات يترتب

وفق ثنائية وصفية في خصائص الأصوات، « فكل العلاقات بين الوحدات الصوتية التمايزية في اللغات المختلفة تخضع لنظام ثنائي »⁽¹⁷⁾، ولعلنا نوافق ياكوبسون رأيه هذا، لو أسقطنا نظريته هته على الصورة التي أتت عليها التصنيفات الفيزيولوجية والفيزيائية للصوت اللغوي العربي، حيث يقابل الجهر الهمس، وتقابل الشدة الرخاوة، ويقابل الانفتاح الإطباق ويقابل الاستعلاء الاستفال. ومن ثمة، فأن الاستدلال لمعنى اللفظ يقوم على الكشف على العلاقة الكامنة بين الظاهر والباطن «كالعلاقة بين الباء والميم المحددة بالقيمة الخلافية في المقابلة من حيث الأنفية وعدمها والشدة وعدمها»⁽¹⁸⁾. وعليه فنحن لا نميز الشدید إلا بوجود الرخو ولا نميز المجهور إلا بوجود المهموس، «وقديما أدرك الكوفيون قيمة المقابلة في إيضاح المعنى فسموها الخلاف»⁽¹⁹⁾، وهو الأمر ذاته الذي كان يصبو إليه الشكلاونيون، مؤكدين على أن سمة التمايز الحاصلة بين الوحدات الصوتية المشكلة لبنية الكلمة هي نواة تشكل الدلالة، كما أن الفروق الحاصلة هي السبب المباشر الذي يسهم في تسهيل عملية الاستقبال والتلقي في العملية التواصلية.

إن التوافق الذي وقفنا عليه من خلال هذه المقاربة، يضعنا عند نقطة التقاطع بين التوجيهين، والتقاطع هنا، ينهض على أن العلامة الصوتية، أو الصوت اللغوي هو جوهر دلالة الكلمة ومعنى الجملة قبل ترانيمها في خطية اللغة، لتختصروظيف اللغة «على ربط مضمونات الفكر الإنساني بأصوات ينتجها النطق»⁽²⁰⁾. لتمثل خطيتها في «مجموعة أصوات تعبر عن الفكر»⁽²¹⁾، والبحث في طبيعة الصوت، هو في حقيقته بحث في جوهر الدلالة والمعنى.

إن جوهر الانعطاف الإجرائي الذي عرفه الطرح البنوي لدى الوظيفيين من مارتينييه martinet إلى جاكوبسون yakobson أسست له القفزة النوعية التي عرفتها الدراسات اللسانية الحديثة، والتي توخت الوقوف على العلائق التي تربط بين الخاصية المادية للصوت والوظيفة التي يؤديها داخل التشكلات الكلامية، بخاصة الوظائف الدلالية منها، مما أرغم دارسي الفونيتكا على إعادة النظر في طرائق البحث عن خصائص الصوت اللغوي وطبيعة تكونه قبل الولوج إلى وظيفته، ولم تكن نظرية الفونيم عند تروبسكي Trobtskoy ونظرية التقابل الألفوني من بعدها إلا نتاجا لمجموعة من الإدراكات المتلاحقة لأسرار الصوت الإنساني استنادا إلى سلطة الآلة والتقنية المتجددة، بيد أن هذا التحول الإدراكي لم نشهد له النقلة المتوخاة في الكشف عن تلك الوظائف التي يؤديها الصوت في تشكيل تلك التمثلات أو الصور المفاهيمية، إلا بعد انفتاح علماء الفونيتكا على علوم النفس وعلوم الطب والأرطوفونيا، بخاصة الأبحاث التي شملت موضوع الأفازيا aphasia أو الحبسة الكلامية التي

قدمها جاكوبسون والتي أبانت عن العلاقة الوطيدة بين العلامة البصرية والعلامة الصوتية من خلال فعلي القراءة والكتابة.

الصورة السمعية وتشكل العلامة.

لقد حصر الوظيفيون علاقة الدال بالمدلول والفعل التواصل، بتلك الصورة السمعية التي يحدثها المثير النفسي stimulus في ذات المتلقي أو السامع، وأكثر الباحثين ربط مفهوم الصورة الذهنية بالمفهوم الإفرادى للكلام، أي المعنى الأول للكلمة المفردة، ويمكن أن نستشهد هنا، بالمثال الذي يوظفه ديسوسير ذاته حين يستحضر كلمة الشجرة، قبل أن يدرجها ضمن سلسلة المثولات التي تأخذها اللفظة في تمثالاتها المرجعية، حيث يتم إقصاء البنية الأولى للكلمة قصراً، بمعنى أننا نقفز خلف الدور التي تؤديه الوظائف التمييزية للتركيبية الفونيمية السمعية للمفردة ش/ج/ر/ة في تشكل العلامة، وننتقل مباشرة للحديث عن مفهوم الصورة العرفي أو المعجمي lexeme لللفظة /شجرة/، ذلك الشكل الذي يتكون من جدد وأغصان وأوراق خضراء. ويبدو أن هذا التجاوز قد أحدث شرخاً وظيفياً وسيكولوجياً يستدعي التأمل والعناية، بخاصة إذا ما عاودنا مراجعة تلك الحقائق العلمية التي قدمها علماء السيكلوجيا حين تطرقهم لعملية اكتساب اللغة والعلاقة العضوية التي يؤديها الفونيم مع الرمز أو الرسم الكتابي المقابل له "غرافيم" grapheme في المناطق المسؤولة عن أداء اللغة في الدماغ البشري ونخص هنا القشرة الرمادية ومنطقتي بروكا وفرنك broka et wernek والشبكة الخلوية اللغوية والتفرعات العصبية المسؤولة على استقبال المعلومات الآتية من الخارج، والفصوص الجدارية، والفصوص الجبهية، والفصوص الصدغية، والفصوص البصرية، والحزمة المقوسة. وجميع هذه الأجزاء العضوية تشتغل على أداء مهمة بيولوجية دقيقة تمكن من ترجمة المعارف والمدركات الخارجية إلى لغة تواصلية تلفظية.

وبشكل أكثر تبسيطاً، نذكر بأن الحقيقة العلمية تقريباً وظائف الدماغ في تعامله مع المدركات الحسية تتلخص في ثلاث هي: التشفير والتخزين والاسترجاع من جانب، وأن كل المناطق المسؤولة عن اللغة تتعامل فيما بينها بشكل تكاملي من جانب آخر، حيث إن مراكز الدماغ تعمل بشكل متناسق ومتكامل عن طريق مناطق الترابط، بمعنى أنه على الرغم من أن الوظيفة التي يقوم بها كل مركز على حدة تختلف عن وظيفة المراكز الأخرى إلا أن النشاط المركزي السمعي مثلاً يتأثر بالنشاط الذي يقوم به المركز البصري أو المركز الحركي⁽²²⁾. من هنا، نستخلص بالبداهة العلمية، أن عملية تشكل الصورة الذهنية في الدماغ تأتي نتيجة التشفير الذي يحدثه الدماغ للمدركات الخارجية،

حيث ينتج عنه بناء أو تولد الصورة الذهنية بأنواعها (الرمز، أو العلامة، أو الإيقونة) لكل مدرك. يقوم بعدها الدماغ بتخزينها وحفظها، ومن ثمة استرجاعها عند توافر المحفز عند الحاجة.

وضمن هذا التشاكل الوظيفي للمخ، ظلت عملية التشفير codage أكثر العمليات تعقيدا، وغموضا، ولم يتمكن العلماء إلى يومنا من الكشف عن التحولات (السيكوحركية) التي يؤديها الدماغ في معالجته للمدركات والمعارف، لكنهم مقابل ذلك، وفقوا إلى حد كبير في الوصول إلى بعض النتائج المهمة بفضل الجهود التي قدمها علماء النفس اللغوي، وباحثو الأطفون أو أمراض الكلام الذين أفضت دراساتهم إلى جملة من النظريات، أهمها أن الطفل في الأسابيع الأولى من حياته، يستطيع أن يحدث أصواتا بشكل آلي، لا إرادي نتيجة لبعض الدوافع الحركية (impulsion moteur).⁽²³⁾ وعادة هذه الأصوات هي الصوائت القصيرة والطويلة (voyelle) والأصوات الشفوية (bilabiales) والأصوات أسنانية (Denteales). ثم يبدأ الطفل في الشهر الخامس بالنطق ببعض الأصوات تلقائيا، ولاحقا تصبح تلك الأصوات العفوية بعض التأثيرات الشعورية نتيجة لتكرار ذات الأصوات، "فالطفل عندما يصدر الصوت (دا) مثلا، وهو صوت يصدر عنه في بادئ الأمر بشكل تلقائي لا إرادي، وإذا حدث وأن تصادف سماع ذات الصوت (دا) مع موقف سار ومفرح، فإن هذا سيدفعه إلى تكرار الصوت (دا)، حيث يرتبط سروره الحادث من اللعب بالأصوات (jeux vocaux) بإدراكه للصوت المسبب لهذا السرور. حيث ترتبط حالة شعورية معينة ببعض الأشكال الصوتية"⁽²⁴⁾.

ومن هنا، يجتهد المحيط في تقريب تلك الأصوات المكتسبة فطريا بمقابلتها بمدلولات إدراكية للطفل (مدركات بصرية، مدركات لمسية) وجميعها مظاهر حسية، وهنا، يبدأ تشكل المعنى عنده، أي أن الصور الذهنية المؤدية إلى الدلالة هي نتيجة تقابل لمظهر حركي للدماغ وآخر حسي. وهنا، يؤكد بياجي بأن أهم إفراز سيتولد نتيجة العلاقة القائمة بين المظهرين الحسي/الحركي، هو القرينة التي ستحيل إلى الإفهام وتشكل العلامة، فإذا كانت الإشارات الإدراكية الناتجة عن المرحلة الحسية الحركية تقوم بدور اطلاع الطفل على خصائص الموضوع، فإن العلامات (وهي الدالات المميزة) عادة ما تنطوي على خصائص التمثلات⁽²⁵⁾ الدلالية.

وقد أجمع علماء النفس اللغوي على أن أولى المدلولات التي يكتسبها الطفل هي معاني المفردات المحيطة به التي تتمكن منها ملكته الحسية، ويتقدم المراحل العمرية تساوفا مع النمو العضوي للدماغ تتشكل المناطق الخلوية المسؤولة عن إحداث جملة العمليات المنطقية التركيبية (الصرف والنحو) التي ستسهم في توليد الملكة الدلالية السياقية والمقامية والتداولية عند الطفل، وكثيرة هي الأبحاث التي

تؤكد على الصعوبات التي يواجهها الطفل أثناء اكتسابه لبعض البنى الصرفية والتركيبية، ويرجع ذلك إلى تنوع هذه البنى وتباين تراكيبها وبالتالي تنوع المعاني التي تستلزمها⁽²⁶⁾، ويتجلى ذلك من خلال الاضطرابات أو المعوقات التي نلاحظها في الأداءات التعبيرية عند الطفل بعد تجاوزه السن الرابعة من عمره، أو الصعوبات التي يواجهها الطفل في الكتابة والقراءة، وهي صعوبات فونولوجية محضة حيث يصعب عليه تمثيل الغارفييم (الترميز المرسوم) بالفونيم المكتسب سماعاً.

وقد أكدت دراسات جاكوبسون أن هذه المعوقات الفونولوجية تعد سبباً مباشراً في الإصابة بالحبسة التواصلية أو أفازيا بروكا، حيث يفقد الطفل القدرة على توظيف واختيار الفونيمات الأنسب من النظام الصوتي في محورها الاستبدالي (désordres paradigmatic)، ومن ثمة يفقد المكنة على ترتيب هذه الفونيمات في انساقها اللغوية وبنائها التركيبية (désordres syntagmatic)، ويشار هنا، إلى أن العجز الحاصل يعود أساساً إلى عجز الدماغ عن التعامل مع القيم الخلافية للفونيمات في نظامها التقابلي (الجهر ≠ الهمس، أمامي ≠ خلفي، انفجاري ≠ احتكاكي) لأنها القيم ذاتها التي تسهم في تأدية الفروق بين الألفاظ المكتسبة سماعاً. ومن ثمة، توليد تمثلاتها العلامية المقابلة لها.

وفي ضوء هذا التقابل المؤدي إلى القيمة الخلافية والوظيفة التمييزية للفونيم، الذي يعد وحدة بنائية للمفردة (الدال)، تنتج الصورة السمعية image acoustique رسم الطابع التشفيري للمفردة (الاعتباطي)، والذي يعد جوهر المظهر الحركي الذي يؤديه الدماغ في التعامل مع المدرك والمُدلول. ومن ثمة، فإن الصورة العرضية للمنطوق الذي تأخذه المفردة لا يشكل أهمية في حد ذاته، وإنما الهيئة السمعية للفونيمات المشكلة له هي التي ستهم في رسم الصور الذهنية، كما تسهم في بناء مصفوفة النظام الدلالي المتعاقب للأنساق التركيبية.

خاتمة:

لقد أضفت بنا الدراسة السالفة الطرح إلى بروز جملة من النتائج والرؤى التي عنيت بمسألة القراءة السيميولوجية للصوت اللغوي (الفونيم) بوصفه وحدة بنائية للمنظومة اللغوية المنطوقة وباعتباره أساسا (raison) في تشكل التمثلات الدلالية.

ولعل أهم هذه النتائج، هي أن العلاقة الثنائية التي جمعت مفهوم الدال بالمدلول ضمن الطرح اللساني البنوي لم تحط بكل جوانب هذه العلاقة، ذلك لأنها حصرت رؤيتها من خلال تشكل العلامة بين حدي الدلالة في إطارها العرفي الاجتماعي متناسية بواكير نشوء وتطور هذه العلاقة عند الإنسان ضمن إطاره الفردي الفطري والبيولوجي والسلوكي.

ومن هنا، فإن أية محاولة للإلمام بطبيعة العلاقة القائمة بين اللفظ والمعناو الدال والمدلول يجب أن ترتفع حتما إلى الإفرازات الإبتيمية لجملة من المعارف، بخاصة علوم النفس والفلسفة وعلم اللسان، وتساقا مع هذا التلازم، انتهينا إلى جملة من النتائج حول تشكل الصورة السمعية نوجزها في الآتي:

-التمثل الدلالي هو نتاج لفعل حسي حركي للدماغ.

-الفعل الحسي للعلامة السمعية هو مدرك سمعي مكتسب بالفطرة أو بالتلقين.

-يؤدي الفعل الحركي إلى تشكل العلامة السمعية وذلك بفضل القيم الخلافية والوظيفة التمييزية للفونيم.

-إن أي تقصير في إكساب الذهن تلك القيم الخلافية يؤثر بشكل مباشر على تشكل الصورة السمعية للدال ومن ثم على مدلوله الاستبدالي والتعاقبي.

1. لطفي عبد البديع، التركيب اللغوي للأدب (بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا)، دار المريخ للنشر، الرياض، 1989، ص 11
2. نفسه، ، ص 11
3. ينظر: أبو السعود أحمد الفخراي، البحث اللغوي عند إخوان الصفا، ط 1، مطبعة الأمانة، مصر، 1991، ص 21
4. أبو السعود أحمد الفخراي، البحث اللغوي عند إخوان الصفا، ص 22
5. أبي الثناء الأصفهاني، بيان المختصر، شرح مختصر ابن الحاجب، ج 1، ص 150، عن محمد ابراهيم محمد، فقه اللغة، مفهومه-موضوعاته-قضاياها، ط 1، دار خزيمة، الرياض، 2005، ص 18
6. محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص 141
7. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1994، ص 34
8. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 34.
9. Roman Jakobson –Essais de linguistique générale –Paris, Minuit, 1973, Tome II, p133
10. أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 70.
11. فردينان ديه سوسر، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي، مجيد النصر، دار نعمان للثقافة، لبنان، ص 21.
12. جرجي زيدان، اللغة العربية كائن حي، ط 2، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988، ص 92.
13. فردينان ديه سوسر، محاضرات في الألسنية، ص 25
14. سيزا قاسم، ونصر حامد أبو زيد، مدخل إلى السيميوطيقا، منشورات العيون، الدار البيضاء، المغرب، 1986، ص 176.
15. ميشال زكريا، قضايا ألسنية تطبيقية، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1993، ص 57.

- الفونيم: يقدم له الوظيفيون (دانييل جونس في المدرسة الإنجليزية ، ورومان ياكبسون في الشكلائية الروسية ، وأندري مارتينييه في المدرسة الفرنسية) تعريفا مختصرا على أنه أصغر وحدة صوتية غير دالة.
- 16. ينظر: فيكتور إيرليخ، الشكلائية الروسية، ترجمة: الولي محمد ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص 81
- 17. فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان ياكوبسون، ط 1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص 38
- 18. ينظر: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 35
- 19. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 35
- 20. محمود السعران، علم اللغة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 55.
- 21. ينظر: أنيس فريحة، نظريات في اللغة، ط 2 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 08
- 22. مصطفى فهمي، في علم النفس -أمراض الكلام، الطبعة 5، دار مصر للطباعة ص 24.
- 23. مصطفى فهمي، في علم النفس -أمراض الكلام، ص 25.
- 24. ينظر: مصطفى فهمي، في علم النفس ص 25.
- 25. Piaget (J.), La formation du symbole chez l'enfant, Neuchâtel 5 ème éd, Delachaux et Niestlé, (1) 1968-1970, p.286-287
- 26. Bronckart (J.P): Genèse et organisation des formes verbales chez l'enfant, Bruxelles, 1 er éd, 1976, p. 12.